﴿ الجزء الثاني ﴾ ﴿ السنة الثالثة ﴾

المعلم

مجلة علمية تهذيبية تاريخية صحية

﴿ الاسكندرية — سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠١ — جماد اول ١٣١٩ ﴾

الفيلسوف ارنست رنان

مشاهير المتقدمين والمتاخرين

الفيلسوف ارنست رنان

﴿ المؤرخ المستشرق الشهير ﴾

مؤلف كتاب تاريخ المسيح

﴿ خلاصة هذا الكتاب ﴾

طريقان متخالفان · الاضطهاد الديني في اوروبا وروسيا · ترجمة زعيم من زعماء الافكار المقاومة لرجال الدين · تلخيص كتاب تاريخ المسيح الذي نال مؤلفه من الاضطهاد بسببه اكثر مما نال الفيلسوف تولستوي · ردود المؤلف على معارضيه ومضطهديه نبوءته الدينية

في العالم الآن حركتان شديدتان الاولى اسلامية والثانية مسيحية

اما الحركة الاسلامية فهي قيام المسلمين في جميع اقطار الارض ودعوتهم انفسهم الى اصلاح شؤونهم بواسطة الدين · واما الحركة المسيحية فهي قيام فئات من المسيحيين في اكثر اقطار الارض ودعوتهم انفسهم الى تقييد سلطة رجال الدين وحصر وظيفتهم في اماكن العبادة · فكأن كل واحد من الفريقين يطلب صلاح الحال من الطريق التي ينكرها صاحبه

واذا كانت الطريقة الاسلامية لم تُصب اصحابها بضرر عاجل فان الطريقة المسيحية قد اصابت اصحابها بضرر عظيم · فان العامة في البرتغال واسبانيا وبلجيكا وفرنسا وروسيا قد اكثروا من اضطهاد رجال الدين والسطو عليهم واهانتهم في هذين العامين وهو مما لا يليق بالامم المتمدنة التي تحترم الحرية الشخصية · ولقد كانت فرنسا في جملة من امتازوا في هذه الحلبة لانها وطن الكتاب والفلاسفة الذين ناصبوا رجال الدين واوقفوهم عند حدودهم كفولتير ورسو وديدرو ورنان · وكان اشدهم وطأة الاول والاخير · فاذا

فصلنا ترجمة احدهما رنان وذكرنا لمعًا من فلسفته وآرائه كسنا كمن يبحث في موضوع من مواضيع الحوادث المحلية في الكرة الارضية

***

﴿ تاريخ حياته ﴾ ولد « ارنست رنان » في « ترجيه » من اعمال فرنسا في ٢٧ فبراير من عام ١٨٢٦ . وكان ابوه ربانًا لاحدى السفن التجارية وهو من مقاطعة بريتونيا . واما امه فانها كانت غاسكونية ولذلك كثيرًا ما قال رنان عن نفسه ان هذا المزج بين البريتونية والغاسكونية انشأ فيه من جهة الاول قوة التصور والتامل ومن جهة الثاني قوة الصبر على الحياة والارتياح الى المعيشة كيفما كانت

وقد توفي ابو رنان وعمره خمس سنوات فربته امه بمساعدة بعض الكهنة وهي تنوي ادخاله في سلك الاكليروس . فتلقى رنان دروسه الابتدائية في دير اكليريكي في بلده وقد مال في صغره الى الدخول في هذا السلك رغبة في الانقطاع الى العلم والفضيلة . وبقي على هذه الرغبة حتى بلغ السنة الخامسة عشرة من العمر فانتقل الى دير سان نيقولا في شارددونه لاتمام دروسه فتغيرت افكاره هناك لما كان يجده حوله احيانًا من قلة الاحترام للمسائل الدينية كما قال المسيو برتلو الذي نعتمد عليه في هذه الفذلكة . ومنذ هذا الحين تزعزع ايمانه . ثم انتقل في سنة ١٨٤٢ الى دير ايسي ليتلقن الفلسفة فطالع هناك مؤلفات الفيلسوفين الالمانيين هجل وهردر فاجهزت هذه المطالعة على ايمانه وصار يرى حياة العالم عبارة عن نمو باطني للكون كما ان نمو الشجرة وحياتها انما هو عبارة عن نموها الباطني . وفي سنة ١٨٤٤ اخذ يدرس اللغات الشرقية فما تعمق فيها حتى صار يعتقد انه لا يمكن ان تكون التوراة كتابًا منزلاً وذلك لما رآه فيها من الاغلاط التاريخية . فعدل منذ هذا الحين عن الانخراط في السلك الاكليريكي واقام حينئذ في نفسه نزاع شديد بين النذر الذي نذره من الانخراط في هذا السلك وبين ما حسبه حقيقةً . وكانت له اخت تُدعى هنريت رنان وكانت سامية المدارك قوية العقل وهي اكبر سنًا منه باثنتي عشرة سنة فاخذت تحمد ثورة فكر اخيها وتهوّن عليه قطع ما كان بينه وبين رجال الاكليروس من الصلات . وزار رنان في ذات يوم صديقه الفيلسوف جول سيمون وهو لابس اللباس الاكليريكي واطلعه على ما قام في نفسه من ترك الاعتقاد القديم والعدول عن الانخراط في سلك رجال الدين . قال جول سيمون في بعض كتبه . وقد بذلتُ جهدي في اثناء رنان عن عزمه فكان يجيبني انه لا يستطيع ذلك لان الطائر الذي كان في نفسه

قد طار منها . وهكذا نبذ رنان نذره وخلع الثوب الاكليريكي

ولكن رنان لم يخلع الثوب الاكليريكي حتى لبس ثوب الضجر من الحياة واليأس من الوجود لانه لم يكن يجد لها غرضاً . ولا غرابة في ذلك فان الحالة التي بلغتها نفسه قد البسته هذا الثوب المملوء حسكاً وشوكاً . ثم حسن حظه تعرف في المدرسة التي كان يدرّس فيها بشاب يدعى برتلو وهو المسيو برتلو الكيماوي الفرنسوي المشهور الذي جُعل في هذا العام عضواً للاكاذيمية الفرنسوية وكان من قبل وزيراً للشؤون الخارجية الفرنسوية . فعقد رنان مع هذا الشاب صداقة قوية العرى . وكان برتلو منصرفاً الى العلم المادي او الوضعي فاثرت معاشرته وافكاره في رنان تاثيراً شديداً فصار رنان يعتقد اعتقاده في نفع العلم ومقدرته على اصلاح الهيئة الاجتماعية وتحسين احوال البشر . فصرف افكاره مثله الى العلم قياماً بهذه الخدمة فكان برتلو بتّ فيه روح دين جديد . فاخذ رنان منذ ذلك الحين بالاشتغال بالعلم وصار حينئذٍ يجد للحياة غرضاً ومقصداً

ففي سنة ١٨٤٨ قدم لجمعية الفنون كتابه المعنون « تاريخ اللغات السامية » فطارت به شهرة رنان وعُدّ مستشرقاً عظيماً . ثم كتب في سنة ١٨٤٩ كتابه « مستقبل العلم » غير ان هذا الكتاب لم يُنشر الا في سنة ١٨٩٠ . وكان من اقواله في هذين الكتابين ان العالم ينمو بنفسه من نفسه وهو سائر الى الكمال سيراً تدريجياً . وما هو ذلك الكمال ؟ هو قوة الفكر والفضيلة وطلب الحقيقة والخير لذاتهما . فعلى العلماء والفلاسفة الذين هم نخبة الانسانية ان يبذلوا قصارى جهدهم في تعليم الحقيقة للناس ورفع باقي الانسانية اليهم فان هذا الامر مطلوب منهم كما هو مطلوب من رجال الدين . ومن يقوم به منهم فان عمله يكون عبارة عن صلاة او افضل منها

وفي سنة ١٨٤٩ عُهد الى رنان بمهمة علمية في ايطاليا فسار اليها وشاهد عظائم فنونها الجميلة فتشربت نفسه حب الجمال . وفي عام ١٨٥٢ نشر كتابه « ابن رشد ومبادئه » وموضوعه اثبات ان الاضطهاد الديني هو الذي اوقف في الاندلس والعالم الاسلامي سير التمدن ومنع الارتقاء العلمي والفلسفي الذي كان قريب الحدوث فيها . وكان غرضه من هذا ان يُظهر للحكومات الاوربية والسلطات الدينية ما ينشأ عن اضطهاد الدين للعلم ليكون عبرة لها فلا تضطهد العلم في اوربا فيحلّ بها ما حلّ بمن تقدموها

واقترن رنان في عام ١٨٥٦ بمدموازل شيفر حفيدة المصور آري شيفر فانتبهت فيه عواطف الحب وانعكست الى نفسه صورة الجمال الانثوي الذي اتخذه رفيقاً له فاحياها

وملأها تصورات وتاملات عذبة . فصار فلم رنان بعد هذا الزواج كأنه قد غطَّ في كاس عسل . وقد حدث مثل ذلك لجان جاك روسو بل اشد منه . فانه في بعض ادوار عمره وهو الدور الذي تشتدُّ فيه زقزقة الطيور و تلمع جنح الفراش في الحقول — اي دور الربيع الانساني — صار يحسّ بنار في داخله و برق في عينيه وجريان في قلمه فاذا كتب خط سحرًا وابرز تبرًا . وقد كتب في تلك المدة القريبة كتابه « هيلويز الجديدة » وكله رسائل حبية فلسفية فكان ابلغ كتبه . و بعد ذلك خمدت تلك الثورة وانطفأت تلك النار فذهبت بذهابها تلك البلاغة التي كانت تتصعد عنها

اما رنان فلم تخمد ناره قبل ابرازه الكتاب الذي طير صيته في جميع اقطار الارض وجعله اعظم علماء عصره شهرةً

وهذا الكتاب هو « تاريخ اصل الديانة المسيحية » وهو خمسة اقسام (١) تاريخ حياة المسيح (٢) تاريخ اعمال الرسل (٣) تاريخ حياة القديس بولس (٤) المسيح الدجال وكتاب آخر . وكل واحد من هذه الاقسام كتاب ضخم وامامنا الآن القسم الاول منه وهو تاريخ حياة المسيح وعدد صفحاته ٥٤٩ صفحة كبيرة ما عدا مقدماته الطويلة

ولا ريب في ان هذا القسم اهم اقسام الكتاب كله . وقد كتبه رنان في سياحة له في فلسطين وسوريا ولبنان بين سنة ١٨٦٠ و١٨٦١ وكان مرسلاً اليها للتنقيب عن آثار الفينيقيين وله فيها كتاب عنوانه سياحة في فينيقية . و بعد عودته من فينيقية جُعل استاذًا للغات العبرانية والكلدانية والسريانية في مدرسة كوليج دي فرانس . غير انه بينما كان يلقي فيها اول دروسه لقب السيد المسيح في كلامه عنه « بالانسان الذي لا مثيل له » فقامت في الجلسة قيامة انصار الاكليروس وخصومهم بعض معه و بعض عليه فقررت الحكومة الامبراطورية الغاء هذا الدرس فترك رنان تلك المدرسة . وقد تلا هذا الحادث ظهور كتاب تاريخ المسيح في عالم الادب (سنة ١٨٦٣) فانفجرت على مؤلفه ينابيع حارة وينابيع باردة

اما الينابيع الحارة فانها انفجرت من نفوس جميع رجال الدين ولا سيما الغلاة منهم وجميع الذين يقتدون بهم او يعيشون من ورائهم . فسلقه الناس بالسنة حداد وانهالوا عليه في الجرائد والمجلات بالشتم والسب وحرمه رجال الدين من الكنيسة ولعنوا كل من يقرأ كتبه . وقد اتهمه بعض الغلاة بانه ما كتب ذلك الكتاب الا في مقابلة مليون فرنك قبضها من بيت روتشيلد الاسرائيلي . ولكن اصدقاء رنان الذين يعرفون محبه المجرد

لتقرير ما يحسبه حقيقة ينفون عنه هذه التهمة السوداء . وسنشير في ما يلي الى الردود التي كان رنان يردّ بها على الطاعنين عليه

واما الينابيع الباردة فانها انفجرت من نفوس الاسرائيليين في جميع اقطار الارض لان ذلك الكتاب يعزو تمدن العالم اليهم ويقول بخروج المسيحية منهم وان كان يُثبت ان آدابها العليا لم تشتق من آدابهم . وقد جاراهم في الارتياح الى موضوع هذا الكتاب كل العلماء الماديين في اوربا وكل الكتاب الذين لا يدينون بدين . بل ان بعضاً منهم لام المؤلف وعنفه لانه تساهل في بعض الامور

ثم حدثت الحرب بين فرنسا والمانيا في سنة ١٨٧٠ فكان رنان من كارهيها وقد كتب يومئذٍ في « مجلة العالمين الفرنسوية » مقالة لقب فيها فرنسا والمانيا اختين في المدنية وقال ان من الجناية على التمدن ان تتحاربا . وبعد ما شاهده رنان في هذه الحرب من آثار الهمجية البشرية في ساحة القتال ومن تمرد رجال « الكومون » في باريز وافضاء هذا التمرد الى حرب اهلية بين الفرنسويين جرت فيها الدماء انهاراً تزعزعت ثقته بسير العالم الى محجة الكمال وكره الديموقراطية وشؤونها لانها ادّت بوطنها الى ذلك الوبال . وصار يرى من الواجب على كل امة ان يكون فيها نخبة من رجال الفضل والعقل لادارة شؤونها بقسط واعتدال فلا يكون للفساد والرشوة من سبيل الى نفوسهم . واخذ يتساءل كثيراً هل ان العقل والعدل يسودان في هذه الارض في مستقبل الزمان ؟ ام يتوصل العلم فقط الى حالة يصبح فيها سواد الناس عاجزين عن الاضرار بكبارهم لما يضعه لهم هولاء الكبار من الشكيمة بواسطة معارفهم العلمية . وقد نشر رنان كتاباً في هذا الموضوع عنوانه « مباحثات فلسفية »

ولكن لما قامت الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين اعادته الى كرسي التعليم في كوليج دي فرانس وجعلته مديراً لهذه المدرسة . وفي سنة ١٨٧٩ عُين عضواً للاكاذيمية الفرنسوية . فعاد رنان ورضي عن الديموقراطية بعض الرضى . وفي سنة ١٨٩٢ اتمّ نشر كتابه « تاريخ شعب اسرائيل » وهو خمسة اجزاء وصل بها تاريخ المسيح بتاريخ نشأة بني اسرائيل فكان هذان الكتابان تاريخاً شاملاً للحوادث الاسرائيلية من اولها الى ما بعد انتشار الديانة المسيحية

وقد عمّر رنان نحو سبعين عاماً . وكان في آخر ايامه رزيناً هادئاً مع شيء من التهكم وعدم المبالاة باراء الناس . وبقي على هذا الهدوء والرزانة مع ما انتابه من المرض

والالم في آخر حياته . وقد قال وهو على فراش الموت « انني اموت سعيداً لانني اتممت عملي . وما الموت الا ناموس طبيعي فلنخضع لناموس الطبيعة » وكانت وفاته في ٢ اكتوبر من عام ١٨٩٢

وبعد وفاته ابنته جرائد الارض تأبيناً متباينًا . فبعضها شيعه بالسب والشتم القبيح وبعضها رأى ان يُترك الحكم على اعماله الى الاجيال القادمة . ولا يزال اسم رنان «يرنُّ» في فرنسا الى هذه الايام وقد سماه اصدقاؤه وانصاره « رنان العظيم » . وكذلك سماه المسيو والدك روسو رئيس الوزارة الفرنسوية غير مرة في بعض خطبه . اما خصومه فلا يزالون يلعنونه

ومما يُروى عن رنان وقد رواه نفسه في بعض مؤلفاته ان احد الرهبان كان يرسل اليه في ليلة احدى الاعياد المسيحية الكبرى من كل عام ورقة صغيرة عليها هذه الكلمات « جهنم موجودة » وقد قال رنان بعد ايراده هذا الخبر لقد ظن صديقي الراهب انه يؤلمني بهذا القول وما عرف انني افضل جهنم على « العدم »

ولما زار رنان ايطاليا خرج الناس لاستقباله في زوارقهم فاحاطوا بزورقه واخذوا يصيحون « ليحيَ العلم ليحيَ العلم » يريدون بذلك نكاية رجال الدين في الفاتيكان . وكان رنان ساعتئذٍ يكتب في مذكرته . فكتب فيها هذه العبارة « لا ريب ان الكثلكة تقوضت اركانها في ايطاليا » قالت جريدة الطان بعد نشرها هذا الخبر في الشهر الماضي « لقد اخطأ رنان في هذه النبوءة كما اخطأ في غيرها » ولكنها عادت فعقبت على ذلك بقولها « ولكن قولنا هذا لا يحط من شان رنان . فان رنان يبقى رنان مهما قيل فيه »

ومن اقوال رنان في العسكرية « انني لو اضطررت الى الانتظام في سلك الجندية ولم اقدر على التخلص من ذلك لقتلت نفسي » وقد صدر في فرنسا في الشهر الماضي كتاب عنوانه « سنة في الثكنة العسكرية » وموضوعه الطعن على المعيشة الجندية وعلى الجندية نفسها وقد صدره مؤلفه بالعبارة التي تقدم ذكرها تعزيزاً لكتابه

ولرنان مؤلفات كثيرة غير ما تقدم منها كتاب اصل اللغة . وسفر ايوب . ورسائل رنان وبرتلو . وفصول مختلفة وغيرها

﴿ خلاصة كتاب تاريخ المسيح ﴾

(المولف اهدى كتابه الى اخت والجامعة تهدي الى اخ)

اما كتاب هذا الفيلسوف « تاريخ حياة المسيح » فاننا لم نقدم على تلخيصه في هذه المقالة (او بالاحرى الاشارة الى بعض اغراض من اهم اغراضه العلمية) الا وفي نيتنا تحاشي ذكر كل ما لا يجب ذكره منه احتراماً لاراء الناس ومعتقداتهم ولا سيما بسطاءهم . وللذي حبب

الينا هذا التلخيص ما عثرنا عليه في هذا الكتاب من الشؤون التاريخية الجليلة التي قطع رنان عمره وهو يبحث عنها . فانه وصف فيه حالة اليهود الاجتماعيـة والسياسية يوم ظهور السيد المسيح وما تقدم هذا الظهور وتلاه من الحوادث التاريخية المتعلقـة بتاريخهم وتاريخ الرومانيين اصحاب السلطان عليهم في ذلك الزمان ووصف الامكنة التي عاش فيها السيد وعلّم فيها بعد ان زارها المؤلف بنفسه وكتب هذا الكتاب تحت سمائها . وبعبارة واحدة نقول ان غرضنا تاريخ الوسط الذي عاش فيه السيد . فغرضنا اذاً علمي تاريخي محض واما المسالة الدينية الكبرى فلا دخل لها في هذه المقالة

الهدية الى اخته

وقد اهدى المؤلف هذا الكتاب الى اخته « المدموازل هنريت » التي رافقته في سياحته في سوريا وفلسطين وتوفيت بالحمى في جبيل من اعمال لبنان . وقد صدّر هديته بالخطاب المؤثر التالي

« الى روح اختي هنريت الطاهرة »

« التي توفيت في جبيل في ٢٤ سبتمبر من عام ١٨٦١ »

« اتذكرين وانت الآن مستريحة في احضان الله تلك الايام الطويلة ايام « غزير » التي كنتُ فيها واياك منفردين نكتب صفحات هذا الكتاب الذي كانت توحيه الينا الاماكن التي زرناها معاً . لقد كنتِ يومئذ جالسة بجانبي ساكتة تنتظرين الصفحات التي كنت اكتبها وكلما اتممت صفحة تناولتِها وقرأتِها ثم نسخنهـا بعد قراءتها . هكذا كنا نقضي النهار وتحت اقدامنا البحر والقرى والجبال المجاورة . اما في الليل فانكِ كنتِ تلقين عليّ سؤالات دقيقة لطيفة كان يظهر فيها شيء من ارتيابك فكانت هذه الاسئلة تعيدنا الى الموضوع السامي الذي كان شغلنا الشاغل . وقد قلتِ لي يوماً انك تحبين هذا الكتاب لامرين الاول لانه كُتب في صحبتك والثاني لانه كُتب على ذوقكِ . وكنتِ معتقدة بانه اذا خيف عليه من حكم الرجل الجاهل السريع الحكم الضيق القلب فان كل رجل ذي نفس متمسكة بالدين تمسكاً حقيقياً لا بدّ ان تُفضي به قراءته الى الرضى عنه والسرور به . وبينما كنا منصرفين الى هذه التأملات الحلوة جاء الموت ولطمنا كلينا بجنحه فرقدنا رقاد الحمى في وقت واحد . ثم انتبهتُ فوجدت نفسي وحدي . فانتِ الآن ترقدين بسلام في ارض ادونيس قرب بيبلوس المقدسة (جبيل) في جوار المياه المباركة التي كانت تفد

اليها نساء الاديان السرية الماضية ليمزجن دموعهن بمائها . فيا ايتها الروح الصالحة . اوحي اليَّ انا الذي كنتُ حبيباً اليك في حياتك تلك الحقائق التي هي اقوى من الموت والتي تُعلِّم الانسان ان لا يخشاه بل التي تعلمه ان يتمناه »

هذا نص هدية المؤلف الى اخته . واذا كان كل كاتب يحق له ان يستنجد بالاحياء الذين له في راحة الابدية فما احرى الجامعة ان تستنجد ذلك الاستنجاد ايضاً

وقد نسب رنان غير مرة نجاحه الى اخته فكأنه لا ينبغ رجل عظيم حتى يكون بازائه امرأة تدربه وترشده . وقد ذكرنا آنفاً ان اخت رنان هي التي شددت عزائمه حين عزم على التخلص من السيادة الاكليريكية وذكر المؤلف في كتاب الهدية الذي تقدم ان اخته كانت مرتاحة الى كتاب تاريخ المسيح الذي كان يكتبه فهذا يدلُّ على ان الميل عن التقاليد الدينية امر وراثي في اسرة رنان لانه قلما سُمع مثل ذلك عن النساء لشدة تمسكهنَّ بهذه التقاليد

وقد كتب رنان بعد وفاة اخته كراساً عنوانه « الى اختي هنرييت » لم يُطبع منه في بدء الامر سوى مائة نسخة خصوصية . وهذا الكراس هو ابلغ ما كتبه رنان على الاطلاق لان الحب الاخوي اجرى من اعماق نفسه اشد ما كان فيها من البلاغة والعذوبة . وقد قال موءرخو حياته أن اخته هذه هي التي اصلحت قلمه وعلمته ان ينحو منحى البسيط الطبيعي في كتاباته . ولم يكن كذلك قبل ذلك

المقدمة الاولى

وتلي هذه الهدية المقدمة الاولى للكتاب وقد وضعها المؤلف للطبعة الثالثة عشرة من كتابه . واما النسخة التي امامنا الآن فانها من الطبعة الخامسة والعشرين . فيكون كتابه قد اعيد طبعه ٢٥ مرة حتى هذا العام . وقد ردَّ رنان في هذه المقدمة رداً مختصراً على معارضيه . وهم فئتان . الفئة الاولى منكرو الوحي الذين انكروا عليه الاعتماد على الكتب المقدسة في كتابة تاريخ المسيح لانهم لا يعتقدون صحتها . والفئة الثانية المعتقدون بهذه الكتب بلا بحث ولا جدال وهم رجال الدين ورعيتهم من المؤمنين . وقد قال في ختام هذه المقدمة ما ملخصه

« اني مسيحي ولكنني لست كباقي المسيحيين . فانني اعترف بوجوب ان لا اتكلم عن كنيستي الا برفق ولكن هل ذلك يقضي عليَّ بان اغمض عيني عن الحقيقة . وهل امين

حكومة من الحكومات اذا قلتُ انها لم تحسن تدبير الاميال المختلفة التي في نفوس الناس او اهين ديناً من الاديان اذا قلت انه لم يسلم من الاعتراضات الهائلة التي يقيمها العلم في كل يوم في وجه التعاليم التي من فوق الطبيعة . ان الديانات تسقط الواحدة بعد الاخرى لانها تخضع للقلب لا للعقل ولانه ليس في العالم قوة قادرة على خنق ذلك العقل

ومع ذلك فاذا تمكن العقل من خنق الديانة فالويل له في ذلك اليوم . صدقوني ان كرتنا الارضية تعمل في عمل عظيم سيؤدي الى نتيجة عظمى . فلا نقولوا ان هذا نافع وهذا غير نافع بل دعوها تعمل فان الطبيعة التي خصت الحيوان بغريزة لا تُخطئُ لم تضع في الانسان شيئاً يخدع . ولا نقولوا ان الاديان تخطئُ كلما ارادت اقامة البرهان على وجود « اللا نهاية » وتحديدها والزعم بانها تمثلها فانها اذا كانت تخطئُ في ذلك فانها تصيب جداً كلما اكدت وجودها . واذا مزجت بذلك كثيراً من الاغلاط فليس ذلك بالشيء المذكور بازاء الحقائق التي تنادي بها . وان ابسط الناس المؤمنين في قلوبهم اكثر معرفة بحقيقة الاشياء من ذلك المادي الذي يفسر كل شيء في الحياة بالصدفة وفناء المادة »

وغني عن البيان ان المؤلف لم يوجه القول الاخير الا الى الماديين الذين ينكرون الاديان

المقدمة الثانية

اما المقدمة الثانية فقد تكلم فيها عن المصادر التي استقى منها تاريخ المسيح . وهي خمسة (١) الاناجيل الاربعة واعمال الرسل والرسائل (٢) الكتب المسماة « ابو كريف » من العهد القديم وهي الكتب التي لا تعتقد الكنيسة صحتها (٣) مؤلفات فيلون الفيلسوف الاسكندري الذي عاصر المسيح (٤) مؤلفات المؤرخ يوسيفوس المشهور الذي عاصر المسيح ايضاً (٥) التلمود وهو كتاب اليهود

قال المؤلف . اما مؤلفات الفيلسوف فيلون فانها خير مرشد الى الافكار الدينية التي كانت تختلج في نفس الامة اليهودية في ذلك الزمان . ولكن من سوء الحظ ان فيلون كان يعيش في اقليم غير الاقليم الذي ظهر فيه المسيح وكان عمر فيلون اثنتين وستين سنة لما بلغ السيد اشده واظهر روحه . وكان فيلون شديد الكراهة ايضاً لتعاليم الكتبة والفريسيين وقد عاش بعد السيد عشر سنوات على الاقل . فيا لها من خسارة ان لا يكون قد ذهب الى الجليل ونظر السيد فانه لو فعل لكتب عنه ما يكفي و يشفي

واما المؤرخ يوسيفوس فانه كان يكتب لليونانيين والرومانيين الذين كانوا اصحاب

السلطة على فلسطين ولذلك لم يكتب باخلاص كما كان يكتب فيلون لئلا يلقي التهمة على اليهود ابناء وطنه . وقد كتب ما كتبه عن المسيح ويوحنا المعمدان ويهوذا الغولونيتي باختصار وغموض فلم يفهم اليونانيون والرومانيون حقيقة الحوادث التي كان يشير اليها . قال المؤلف . اما الفقرة التي جاءت في كتابه عن المسيح فانها حقيقية واذا كان يوسيفوس قد كتب عن المسيح فانه لا يكتب الا ما كتب لان ذلك الاسلوب اسلوبه . ولكن القارىء يشتم ان يداً مسيحية قد اصلحت تلك الفقرة وحذفت منها وزادت عليها شيئاً ولا سيما هذه الكلمة التي جاءت فيها وهي « اذا كان يجوز ان يُسمى انساناً » والتي لولاها لكان كلام يوسيفوس شهادة على رجال الدين لا لهم . ومما يرجح هذا الظن ان المسيحيين في القرون الاولى اتخذوا كتب يوسيفوس تاريخاً رسمياً لحوادث بلادهم فغير غريب ان يكونوا قد نشروا في القرن الثاني للميلاد طبعة منقحة من جميع كتبه . ومهما يكن من الامر فان اهمية هذه الكتب في كتابة هذا التاريخ لاتخفى على احد لان هذا المؤرخ اليهودي يرينا فيها بكثرة تفاصيله هيروودس وهيرودياوانتيباس وفيليبوس وحنانيا وقيافا وبيلاطس كأنهم اشخاص احياء بيننا

ثم تكلم المؤلف عن اسفار الابوكريف وعن الاناجيل والتلمود كما تكلم عن المورخين اليهود بين . فقال ان المؤرخ باپياس لم يسمع بوجود انجيل يوحنا ولكنه يقول ان الرسول بطرس كتب انجيلاً فلعله هو . اما متى فلا يجاريه احد في نقل خطب السيد ودقة حفظها كما ان مرقص لا يجاريه احد في دقة نقل الحوادث وتفصيلها بتاكيد واثبات . ثم رد المؤلف على الذين لا يعتمدون على الكتب المقدسة فقال ان المسيو سبرنجر كتب تاريخ حياة صاحب الشريعة الاسلامية واعتمد فيها على الحديث النبوي فلماذا لم يعارضه المعارضون فان هذا كذلك . واذا قام غداً رجل لكتابة تاريخ الفلسفة اليهودية في القرون التي تقدمت ظهور السيد وتلته ببضعة قرون فهل يعترضون على الكاتب اذا نسب الى الفلاسفة اليهود هلل وشاماي وغاماليل الاقوال التي ينسبها اليهم كتاب المشنا والجماره مع ان هذين الكتابين لم يُكتبا الا بعد موت اولئك الفلاسفة ببضعة قرون

ثم رد على الذين يقولون بالعجائب فانكرها وقال ان الذي يعتقد بها ويروم جعل هذا الاعتقاد قاعدة لمباحثتي ومناظرتي فلا يباحثني ولا يقرأ كتبي لاننا لا نتفق ابداً . ثم وصل الى المصدر السادس الذي اعتمد عليه في كتابة كتابه فقال هذا القول الذي يُعدُ تاريخاً لذلك الكتاب

تاريخ الكتاب

تلك هي القواعد التي بنيتُ عليها كتابي . ولكني اضفتُ الى المصادر التي تقدم ذكرها مصدرًا جديدًا وهو زيارة الاماكن التي حدثت تلك الحوادث فيها فكانت لي نورًا مرشدًا . فان البعثة العلمية التي عُهدت اليَّ ادارتها بين عام ١٨٦٠ و١٨٦١ للتفتيش عن آثار فينيقية وارتياد بلادها اوجبت اقامتي مدة على حدود بلاد الجليل والسياحة فيها مرارًا . فطفت في هذا الاقليم الانجيلي من كل الجهات و زرت اورشليم وحبرون والسامرة وكل مكان له علاقة بتاريخ المسيح . وقد يخيل للبعيد عن تلك الاماكن ان الحوادث المسيحية الاولى حدثت في فضاء خياليّ لا حقيقة له ولكن لما زرتُ تلك الاماكن تجسمتْ فيها تلك الحوادث امامي تجسماً ادهشني . فقد كان الائتلاف تامًا بين النصوص الانجيلية والاماكن المذكورة . واذ نظرتُ تلك المناظر الطبيعية الجميلة وقابلتُ بينها و بين روح الكمال الموصوفة في الانجيل شعرت بانطباق هذه على تلك وحينئذٍ احسست كأنَّ وحيًا اوحي اليّ . فتاملتُ فوجدت امامي انجيلاً خامسًا مفتوحًا وهو انجيل الطبيعة . فصرت اقرأ فيه ولما كنت انتقل منه الى انجيلي متى ومرقص كنت ارى بين السطور صورة شخص عظيم حي . فلما جاء الصيف صعدتُ الى غزير في لبنان لاستريح قليلاً وهناك كتبت بسرعة وصف تلك الصورة العظيمة التي ظهرتْ لي فكان منها هذا التاريخ . ثم نزلت بي مصيبة اليمة اضطرتني الى تعجيل سفري (وفاة اخته) فسافرت ولم يكن باقيًا عليَّ من هذا الكتاب غير بضع صفحات . فانا اذًا قد كتبتُ هذا التاريخ في مكان قريب من الامكنة التي عاش يسوع فيها . ولما عدتُ الى بلادي اخذتُ اصلح واكمل تلك الصفحات التي سطرتها بسرعة في كوخ مار ونيدون ان يكون حولي سوى خمسة من الكتب او ستة »

وفي ختام المقدمة الثانية ما خلاصته « واذا كان يجب على الكاتب ان يكون ميالاً للموضوع الذي يكتب فيه ليجيد فيه ويحسن في شرحه فان ذلك لا ينقصني . ولا اجهل انه يجب على الذي يتصدى لتاريخ دين من الاديان امران . الاول ان يكون قد آمن به اولاً والا فانه لا يفهم شيئًا من محاسنه ولا يُدرك ما فيه من مطمئنات النفوس ومُرضيات الضمير البشري . وثانيًا ان يكون قد صار ممن لا يؤمنون به ايمانًا مطلقًا من غير شرط ولا قيد لان الايمان المطلق لا ينطبق على العلم والتاريخ لما انه يوجب التسليم والعلم والتاريخ لا يعرفان تسليماً . ولكن الحب قد ينشأ في القلب من غير ايمان . واذا كان الانسان لا يعتقد باشكال الامور التي تستوجب عند الناس العبادة والايمان فان ذلك لا يمنعه من

الاعجاب بما في تلك الامور من الخير والجمال . اما الالوهية فانها لا تنفد معما تكرر ظهورها لان الله قد ظهر قبل يسوع المسيح وسيظهر بعده . وظهوره سواء كان كبيرًا او صغيرًا فانه من طريق واحد وهو ارادته المودعة في الضمير البشري . فليس يسوع اذًا خاصًا بالذين يسمون انفسهم تلامذته ولكنه شرف عام للجميع اي لكل من له قلب انسان . وما عظمته ونجده ان يوضع خارج دائرة التاريخ ولكن ان يوضع في داخلها . وانَّ اصح عبادة نقدم له هي اظهار ان التاريخ البشري غير مفهوم بدونه »

المقدمة الثالثة

وقد جعل المؤلف هذه المقدمة الثالثة تمهيدًا لموضوع الكتاب فبحث فيها عن الحركة الدينية في العالم منذ انشائه . فقال ان التمدن القديم الذي نشأ في الصين وبابل ومصر قد رقى الاديان بعض الشيء فان الاديان في مصر وسوريا واشور والصين كانت تحتوي كثيرًا من المبادىء الادبية ولكن الاوهام والخرافات كانت كثيرة فيها ولذلك لم يكن ممكنًا ان يصدر عنها فكر عظيم . وكيف تصدر الآداب والحرية عن نسل ما فتىء ذليلاً مستعبدًا منذ وجوده

واما النسل الذي صدر عنه الايمان والحرية والنزاهة والاخلاص وتصورات النفس الغزلية فهو نسل هنود اوروبا والساميين . ويريد بالساميين جميع الشعوب التي كانت تتكلم بلغة من اللغات التي يسمونها سامية (العربية والسريانية والعبرانية والارامية والكلدانية والاشورية والحميرية) . فمن هذين النسلين (هنود اوروبا والساميين) خرج تمدن العالم واديانه الراقية . اما هنود اوروبا فقد كانت ثمار عقولهم تصورات رقيقة وحنانًا وعواطف جدية اي عواطف من الزم لوازم الاداب والدين . ومع ذلك فان الدين لم يخرج منهم لانهم كانوا شديدي التمسك بتقاليدهم الدينية القديمة . وانما خرج من الساميين الذين كان لهم في ذلك فضل عظيم على الانسانية

فالذين اعدوا اذًا سبيل الدين للانسانية في العالم هم اولئك البدو الذين كانوا سارحين في بلاد المشرق تحت الخيام والاطناب بعيدين عن فساد العالم واضطراباته . وكان من اخص مزاياهم انكارهم على سوريا اديانها المادية المبنية على اللذة ثم بساطة العبادة لانهم لم يتخذوا هياكل ولا اصنامًا . وكان في جملة قبائلهم قبيلة بني اسرائيل ولا يخفى ان هذه القبيلة كانت ذات صلات قديمة بمصر وقد اقتبست من المصريين اشياء يعسر على التاريخ حصرها وذلك مما زاد في كراهتها للوثنية . فهذه القبيلة تمَّ لها في ذلك الزمان الحصول على « توراة » اي شريعة مكتوبة على الواح حجرية وفيها مبادىء ادبية حقيقية وجراثيم المساواة الاجتماعية .

وكان لهذه القبيلة شيوخ ممتازون بالمعرفة والشعب يستشيرهم في المسائل المعضلة وكانوا يُدعون انبياء . اما كهنتهم فانهم كانوا يُشبهون الكهنة الذين نقدموهم ولا يمتازون عنهم الاَّ بان الشؤون الكهنوتية عند كل واحد منهم كان مرجعها الى رايه . وكان الانبياء الذين نقدم ذكرهم من حُفاظ المبادىء الديموقراطية القديمة التي كانت خاصة بالقبيلة ولذلك كانوا يكرهون كل تنظيم سياسي يُرام ادخاله الى بني اسرائيل لجعلهم كباقي الامم التي تليهم هذا فضلاً عن عدائهم للاغنياء . فهؤلاء الشيوخ كانوا السبب الاصلي في تقدم الشعب اليهودي في الدين على سائر الشعوب . ولكن لما هجمت السلطة الاشورية على ذلك الشعب وسحقته لاصغائه الى نصائح اولئك الشيوخ قام الشيوخ اصلاحًا لخطاءهم ينادون بان مملكة يهوذا ستدوم الى الابد وان اورشليم ستكون عاصمة الدنيا كلها . ثم طرأت انقلابات كثيرة على الشعب اليهودي اخصها قيام الدول الكبرى في آسيا بعضها يتلو بعضاً فانقطع امل بني اسرائيل من عودة الملك اليهم فصرفوا نظرهم عن الارض الى السماء وازدادوا تمسكاً بالشؤون الدينية . وقد صاروا حينئذٍ يرضخون لكل نير يوضع على اعناقهم على شرط ان يحترم وليُّ امرهم عاداتهم ودينهم . ومنذ ذلك الحين لم يعد عدوًا لهم الا كل من كان عدوًا للاله الواحد ولم يعد لهم من وطن ولا شريعة غير الشريعة الدينية

ثم ظهر كتاب دانيال الذي هاج اشجانهم وزاد املهم في قرب قدوم المسيح المنتظر لانقاذهم من ضيقهم . فازدادوا تمسكاً بالشريعة الموسوية وصاروا يقتلون كل من يخالفها . وكلما كانت تثقل عليهم يد الوثنيين الذين كانوا اولياء امرهم كانوا يزدادون انقطاعاً عن الارض ويوجهون انظارهم الى العالم الثاني . وكان العالم مشغولاً عنهم في ذلك الزمان بحوادثه الكثيرة فلم يلتفت الى ما كان يحدث عندهم . ولكن الامبراطورية الرومانية كانت حديثة النشأة اذ ذاك وقد قامت بعد حروب واسوال فكان الناس يتوقعون للعالم دورًا سلمياً في عهدها . واما اليهود فانهم كانوا يتوقعون حينئذٍ بصبر فارغ قدوم « مسيا » المنتظر وكان كثيرون من صُلاحهم يقضون الليالي والايام حول الهيكل صائمين مصلين وهم يسالون الله ان لا يتوفاهم قبل تحقيق آمال شعب اسرائيل . وكان الانتظار شديدًا حتى ان كل واحد من الناس كان يشعر بقرب حدوث شيءٍ عظيم »

ثم جاء المنتظر ورقى الدين الى درجة من الكمال والسمو لم يبلغها قبل ذلك

وسندخل في موضوع الكتاب في الجزء التالي